

الواقع الثقافي والأدبي الجزائري في عهد الاستعمار الفرنسي

The Algerian cultural and literary reality during the French colonial era

1 البحث: الطيب بوخرصة*

جامعة بن خلدون تيارت، (الجزائر)، tayebbouk48@gmail.com

2 أ.د. بلقاسم حسيني

جامعة بن خلدون تيارت، (الجزائر)

مخبر الخطاب الحجاجي، أصوله ومرجعياته و آفاقه في الجزائر

تاريخ الارسال 2025/05/11 تاريخ القبول 2025-08-12 تاريخ النشر 2026-09-20

استعمرت فرنسا الجزائر، وسيطرت عليها في العديد من الأصعدة وبخاصة الصعيد الفكري، فقامت بطمس معالم الهوية للمجتمع الجزائري، وذلك بالتضييق على الشعب في الالتحاق بالتعليم، والضغطة عليه في أوضاعه الاجتماعية والثقافية، حتى لا يفكر في الخروج من الأزمة والمطالبة بالاستقلال وحمل لواء المقاومة، لكن هيهات فقد كانت المحن هي الظروف التي أدت بالشعب إلى الانخراط في صفوف المقاومة وحمل هم الثورة الجزائرية التي كللت بعد قرن واثني وثلاثون عاما باندلاع الثورة الجزائرية التي ألهمت الشعب إستقلاله.

الكلمات المفتاحية:

الاستعمار الفرنسي - المقاومة - الكفاح - طمس الشخصية - التعليم - اللغة العربية - الدين الاسلامي - الفكر - الثقافة - الحركة الأدبية.

Abstract:

FRANCE COLONIZED ALGERIA AND CONTROLLED IT IN MANY ASPECTS, ESPECIALLY THE INTELLECTUAL ASPECT. IT OBLITERATED THE IDENTITY OF ALGERIAN SOCIETY BY RESTRICTING THE PEOPLE'S ACCESS TO EDUCATION AND PRESSURING THEM IN THEIR SOCIAL AND CULTURAL CONDITIONS, SO THAT THEY WOULD NOT THINK ABOUT GETTING OUT OF THE CRISIS AND DEMANDING INDEPENDENCE AND CARRYING THE BANNER OF RESISTANCE. BUT IT WAS IMPOSSIBLE, AS THE HARDSHIPS WERE THE CIRCUMSTANCES THAT LED THE PEOPLE TO JOIN THE RANKS OF THE RESISTANCE AND CARRY THE BURDEN OF THE ALGERIAN REVOLUTION, WHICH CULMINATED AFTER A CENTURY AND THIRTY-TWO YEARS WITH THE OUTBREAK OF THE ALGERIAN REVOLUTION THAT INSPIRED THE PEOPLE TO THEIR INDEPENDENCE.

KEYWORDS:

* المؤلف المرسل: الباحث: الطيب بوخرصة

FRENCH COLONIALISM - RESISTANCE - STRUGGLE - ERASURE OF PERSONALITY – EDUCATION - ARABIC LANGUAGE - ISLAMIC RELIGION - THOUGHT - CULTURE - LITERARY MOVEMENT.

توطئة:

بعد أن وقع المغرب الإسلامي تباعاً تحت نير الاستعمار الأوروبي، عانت بلادنا الجزائر أكثر من غيرها مرارة الاستعمار لأنّ فرنسا كانت تهدف إلى جعلها مستعمرة أوربية نموذجية تكون نواة لإمبراطوريتها الحديثة التي كانت تعتزم إنشاءها آنذاك فيما وراء البحار، فعملت على محو وطمس الشخصية القومية الجزائرية وفصل الجزائر تماماً عن ماضيها وأمجادها الفكرية والحضارية، واستعملت دون جدوى، كل الوسائل والحيل لتحقيق ذلك، و"وجد شعب الجزائر نفسه أمام إرادة المسخ والتشويه لماضيهِ وأمجاده، والمحو والإزالة لكيانه، فصمّم على المقاومة واستبسل في الكفاح والجهاد عسكرياً وسياسياً، طوال قرن واثني وثلاثين عاماً أخرى حفظت له من جهة كرامته وشخصيته وضاعفت من جهة أخرى في تحلفه عن الركب الحضاري، وحالت دون مشاركته بصفة فعالة في إقامة الدّعائم والأسس لصرح الحضارة والمدنية الحديثة، ومن جهة أخرى لكونه كتب من وجهة نظر معيّنة لخدمة الوجود الفرنسي في هذه البلاد، وفي إطار التّاريخ لأعمال الجيش الفرنسي وتاريخ فرنسا الذي دعوه بعد ذلك بتاريخ فرنسا المحلي¹.

فقد "كان بالإمكان أن تكون الكبوة صغيرة والعثرة محدودة الأثر لولا وقوع البلاد تحت الاستعمار الفرنسي ابتداءً من عام 1830، الذي ضاعف من آلام الشّعب الجزائري ومصائبه وكوارثه لأنّه استعمار استيطاني صليبي شرس وحقود، تجاوز كلّ الحدود في الوحشية والعجرفة، والخشونة والطُّغيان والعنصرية، وسعى بكلّ طاقاته أن يمحو ويطمس مقومات الشّعب الجزائري القومية والحضارية، وعلى رأسها العقيدة الدّينية الإسلامية واللّغة العربية والفكر والتّقاليد والتّعليم"²، "محاولاً مسحها وإفراغها من مضامينها، وصيّها في قوالب تلائم أهدافه ومخططاته، وتضمن لوجوده الدّوام والبقاء في الجزائر"³.

فلا يمكن الخوض في غمار واقع الثورة الجزائرية ما لم نخرج على الأحوال التي عاشها الأدب الجزائري وخاصة في جانبه الثّوري قبيل اندلاع الثّورة التحريرية المظفّرة، وذلك بمعرفة النّقاط الآتية:

أ – الحياة الثقافيّة والفكرية بالجزائر.

ب – الحركة الأدبية قبيل الثورة.

ج - شعر المقاومة الثورية.

إن بدأنا بالحركة الثقافية والفكرية بالجزائر فإنَّ "الشَّخصية الجزائرية هي شخصية عربية، وتعتبر جزء لا يتجزأ من الشَّخصية القومية للأُمَّة العربية، قد تكوَّنت من امتزاج عنصري الأمازيغ والعرب طوال أربعة عشر قرناً بحيث نتج عنه عنصر جزائري جديد أمَّه الجزائر وأبوه الإسلام، وبذلك تحدَّدت مقوِّمات الشَّخصية الجزائرية وتبلورت في اللُّغة العربية والدِّين الإسلامي"⁴.

فاللُّغة العربية هي اللُّغة الوطنية والقومية للمجتمع الجزائري، وتعتبر مقوِّماً أساسياً للشَّخصية الجزائرية، وقد لعبت طوال قرون عديدة دوراً كبيراً في التماسك الاجتماعي والقومي للمجتمع الجزائري، ويعود ذلك إلى عاملين: الأوَّل؛ أنَّها لغة قومية للجزائريين تربط بعضهم ببعض من ناحية، كما تربطهم بالمجتمع العربي على مستوى الأُمَّة العربية من ناحية أخرى، وتحدِّد انتماءهم المصيري إلى ثقافة اللُّغة العربية وحضارتها. والثَّاني أنَّ اللُّغة العربية هي لغة القرآن، وبالتالي فهي لغة الإسلام الذي يدين به الجزائريون، ويتَّصل بواسطتها الفرد الجزائري بمنابع الإسلام في القرآن، والحديث، والفقه وغيرها من الثَّرات الفكري والرُّوحي للإسلام. يقول الشَّيخ محمد الإبراهيمي يشرح مكانة اللُّغة العربية في تكوين الشَّخصية الجزائرية: "اللُّغة العربية هي لغة الإسلام الرِّسمية، ومن ثمَّ فهي لغة المسلمين الدِّينية الرِّسمية، وهذه اللُّغة على الأُمَّة الجزائرية (الشَّعب الجزائري) حقَّان أكيدان: كلُّ منهما يقتضي وجوب تعلُّمها فكيف إذا اجتمعوا، حقٌّ من حيث أنَّها لغة دين الأُمَّة بحكم أنَّ الأُمَّة مسلمة، وحقٌّ أنَّها لغة جنسها، بحكم أنَّ الأُمَّة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا"⁵.

واللُّغة العربية من جهة أخرى هي كما يقول الإمام عبد الحميد ابن باديس: "التي تربط ماضي الجزائر المجيد، وحاضرها الأعزَّ، ومستقبلها السَّعيد، وهي لغة الدِّين، والجنسية والقومية واللُّغة الوطنية المغروسة"⁶.

كما يعتبر الدِّين الإسلامي مقوماً آخر له العمدة في تكوين الشَّعب الجزائري، فقد أصبح في الجزائر بفضل القرآن العربي اللُّغة والبيان، كما أنَّ المذهب السَّائد في الجزائر هو المذهب المالكي وهو أحد مذاهب السُّنَّة، ومنذ دخوله الجزائر ولا يزال يشكِّل حصناً منيعاً لشخصية الشَّعب الجزائري القومية ضدَّ كلِّ تهديد تتعرَّض له سواء كان داخلياً أو خارجياً، ولذلك كان شعار الحركة الوطنية الذي ناضلت تحت لوائه "الإسلام ديننا-العربية لغتنا-والجزائر وطننا" ولا عجب في ذلك، فالإسلام الذي صاغ حياة الجزائر، هو من قاد

هذه الحياة، لأنه خالط كل صغيرة وكبيرة في البادية والمدينة من حياة الجزائر والجزائريين، وهو الذي مكّن في العصر الحديث للحركات الوطنية والسياسية، والإصلاحية ثم الحركة الثورية بعد ذلك في أرض الجزائر، ولذلك فهو قيمة القيم في الحياة الجزائرية، ولما كان التاريخ العربي الإسلامي للجزائر يعتبر عاملاً هاماً من عوامل الشخصية الجزائرية فقد شقّ عليه الاحتلال حرباً عنيفة، لا تضارعها إلا تلك الحرب التي شنها على اللغة العربية والثقافة العربية ومنع تدريسها لأبناء الجزائريين في المدارس الحكومية الفرنسية للغة، كما حظر على مدارس التعليم العربي الحر إدخاله في برنامجها الدراسي لتلاميذها في الجزائر.

فكانت حقاً اللغة العربية هي لغة العلاقات الخارجية مع الدول المجاورة والبعيدة من أقطار المشرق العربي، ولغة الصلوات الخمس، ولغة الدروس الدينية اليومية، ولغة خطب الجمعة ولغة الاتصال اليومي بالناس. وظهرت سياسة الاحتلال بين محاربة الدين والقضاء على الشخصية الجزائرية من خلال القضاء على المساجد، والإستيلاء على الأوقاف، والسيطرة على القضاء الإسلامي وتشجيع التبشير المسيحي، والانحراف الديني المتمثل في البدع والخرافات ثم وجه الاستعمار همه بعد ذلك لمحاربة اللغة العربية؛ وهي اللغة التي تصون تماسك الشعب وتبقي على وحدته، وتحافظ على تماثل أفكاره ومشاعره.

فلم يقصد الاستعمار الفرنسي في الجزائر غزو الأرض فقط إنما أراد غزو الأفكار كذلك، فقام بتنفيذ الغرض الأول العسكريون، بينما أسند الغرض الثاني لرجال الدين، ولم يكونوا لوحدهم إنما كان عدد من السياسيين المؤمنين والمتحمسين لهم، فأثناء الحملة الفرنسية على الجزائر في 1830، اصطحب الغزاة معهم رجال الدين حتى يكتمل غزوهم العسكري بالغزو الفكري، فجلب الجنرال دوبورمون معه ست عشرة قسيساً لأنه كان يأمل أن يعقب الغزو العسكري بالغزو الفكري، وفور سقوط مدينة الجزائر بيدهم أمر حكامهم جيشهم المتعطش للنهب والتدمير بتحويل المساجد إلى كنائس وإلغاء شرعية الأعياد الدينية الإسلامية والاستيلاء على الأوقاف الإسلامية وإفساح المجال للمبشرين لإرجاع هذا الشعب إلى حظيرة الدين المسيحي. وكانت الأعمال الفرنسية إزاء الدين الإسلامي والشعور العقائدي للجزائريين عملية استفزازية، فأهانوا بيوت الله كالسائر على الأقدام في المساجد وتحويلها إلى كنائس وملاجئ ومستشفيات، والكنائس والأوقاف بالإدارة الفرنسية (أملاك الدولة) لضرب التعليم العربي الإسلامي في الصميم، وجعل مقابر المسلمين طرقات عمومية وإرسال رفات الأموات إلى مرسيليا لصنع فحم العظام، فبعد انتصار الفرنسيين على المقاومة الوطنية،

اشتدّت حركة الإرساليات التبشيرية التي وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه، والتشجيع الكامل من العسكريين الفرنسيين، فكان منهم إرساليات منظمة كالأخوان والأخوات البيض وإخوان المذهب الكاثوليكي، وغيرهم.

احتضنت فرنسا سياسة تبشيرية واسعة النطاق لتنصير الجزائريين رغم أنّها دولة لائكية "علمانية" كما ينصّ دستورها، وتعاونت تعاوناً كبيراً في هذا الميدان مع الهيئات التبشيرية المسيحية من مختلف أنحاء العالم للقضاء على الإسلام الذي منع اختراقها للمجتمع الجزائري، ولقد ظلّت شؤون الدين الإسلامي منذ الاحتلال حتّى استقلال الجزائر خاضعة للسيطرة الاستعمارية، ورفض الاحتلال تطبيق مرسوم فصل الدولة عن الدين الإسلامي، بحيث بقيت شؤونه من اختصاص الحاكم العام الفرنسي في الجزائر، بالرغم من إلحاح الجزائريين على تطبيق مرسوم عام 1907 على الإسلام أسوة بالمسيحية.

عن أول عنصر؛ نقول إنّ ثقافة شعب هي لغته ودينه وعلمه، وهي النقاط التي ركز الاستعمار الفرنسي على مسحها منذ وطئت أقدامه أرض الجزائر، فقد استهدفت الحملة الفرنسية الشعب جسماً وروحاً بعد أن تأكدت أنّ بقائها لا يضمن إبادة الجسم وحده، فسعت للقضاء عليهما معاً، وتحت وطأة الضربات القاسية بدأت معالم الشخصية الجزائرية تضيع، وأخذت أسسها تتزعزع، وكانت البداية بالدين الإسلامي باعتباره الحجر الأساس في مبنى الشخصية والعمود الفقري لها، حيث حاول المستعمر الغاشم أن يستبدل إسلامنا بإسلام من صنع يده، يضع هو أركانه ويؤطر حدوده واتجاهاته حسب أهوانه ومصالحه، وذلك بإنشاء معاهد سطر هو برامجها وقيّد لها بعض الزوايا والطرق تخدّر الشعب بطقوس وأضاليل "كالمدارس الثلاث التي افتتحت في كلّ من قسنطينة والجزائر وتلمسان سنة 1850، والتي تخصّصت في تخريج رجال الدين الرسميين من قضاة وأئمة ورجال إفتاء"⁷، وهذه المدارس أصلاً كانت مخدرة في يد المستعمر، ودورها هو تخدير هذا الشعب خاصة فئة النشء باعتباره جيل الغد، وعلى هذا نصّ قادة الاحتلال ومنهم الكاردينال لافيغري الذي يقول: "علينا أن نخلّص هذا الشعب ونحرّره من قرّانه، وعلينا أن نعتني على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على المبادئ غير التي شبّ عليها أجدادهم، فإنّ واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضّر"⁸.

وفي هذا نرى أن المستعمر لم يكتف بتشويه صورة الإسلام فحسب، بل سعى إلى استبداله بدين آخر وهو دين الإنجيل، وخيّر الجزائريون بينه وبين النّفي إلى الصّحراء، وأمّا الكتابات القرآنية فكانت تعلّم القراءة والكتابة والقرآن الكريم، وكانت تعتبر كمراكز تشويش ضدّ الاستعمار، وتأسّست على أثر ذلك مدارس سيّرها مسيحيون ابتداء من سنة 1878، ولم يعرقل أحد سيرها، لتقديم مقام المدارس الرّسمية فتحت أبوابها للتلاميذ المسلمين في بعض المناطق الجزائرية كالقبائل الكبرى، حيث سجّل فيها 21 مدرسة مسيّرة من قبل الآباء البيض يدرس فيها 1039 تلميذاً في البيض وأولاد سيدي الشّيخ، وورقلة قصد التّمسّح وتجريد بعض النّواحي من ثوب العربيّة والدين.

هذه لمحة عن صورة الدّين واللّغة في الجزائر، أمّا التّعليم فلم يكن أوفر حظاً منه ولا أحسن حال، فاللّغة كائن حيّ ينمو ويتطوّر على ضوء الطّروف الّتي تمّده بالطّاقة والحياة، وإذا ما عاش هذا الكائن أجواء تحرّمه التّنفس إلّا بضيق وحرّج، فإنّنا لن نتوقّع له الوفرة والنّماء، وهكذا كان شأن اللّغة العربيّة في التّعليم تحت سير الاحتلال، فقد حوربت محاربة ضاربة واعتبرت لغة أجنبية في البلاد، حيث راح المستعمر يفرض لغته عن طريق التّربّيع تارة وبالتّرهيب تارة أخرى. وطالب نص قانون الجزائر المؤرخ في (20-09-1947) في مادته 57 على "أنّ اللّغة العربيّة تعتبر كلغة من لغات الإتحاد الفرنسي، وأنّ تعليمها سينظم على جميع المستويات"، وعند اندلاع ثورة نوفمبر 1954 المجيدة لم تصل نسبة الجزائريين المسجّلين في المدارس الحكومية 15%، حيث قام المعمرّون خلالها بتنظيم حملات تستهدف مكانة الثّقافة العربيّة الإسلامية بتمجيد أحكام قانونهم المؤرّخ في سنة 1947 وإلغاء استعمال العربيّة كلغة رسميّة قانونية في المحاكم والمصالح التّابعة للحالة المدنية وإدارة شؤون الجالية بالمناطق الجنوبية، وإغلاق المدارس الحرّة الّتي كانت في نظرهم مراكز ضدّ فرنسا تلقّن مبادئ الحضارة العربيّة الإسلاميّة وتبثّ الوطنية وتطلب من الشّعب التّسلّح بالإيمان والحديد والنّار وبالعلم، لمكافحة الاستعمار وإجلاله من أراضينا الطّيبة، فمنع المعمرّون أيضاً نشر وبيع الجرائد والمجلات والكتب الحرّة باللّغة الوطنية.

فأصبحت اللّغة العربيّة من جديد غريبة في وطنها إثر هذه الإجراءات الجائرة موضوعة في المؤسسات التّعليمية والحكومة في درجة أدنى من اللّغات الأجنبية يعدلّ تلاميذ الثّانويات على اختيارها طلباً من المدراء الفرنسيين، متّهمةً بالعدم ليدرسها أساتذة أجنب لا يحسنون نطقها وباستعمال لغتهم الفرنسيّة، حصصها

في غالب الأحيان مشوّشة من قبل تلاميذ غير جديرين يؤدّون في أوقات تدريسها فروضا تتعلّق بمواد أخرى، وهذا ما يتنافى وأساليب التدريس القديمة والحديثة، وكانت لا تدرّس في الابتدائي إلّا قليلا جداً في الأحياء المسماة بالعربيّة لمُدّة ساعتين خلال الأسبوع.

فكان كلّ هذا غير كافٍ لإرضاء وإقناع المعرّبين فضاعفوا قواهم ليعارضوا انتشار تدرسيها في المؤسسات الحكومية والحرّة وعلى جميع المستويات، وقام أساتذة جامعيون مسؤولون على التّعليم في بلادنا بحملة ضدّ لغتنا فصّرّحوا عن طريق لائحة مؤرّخة في مارس 1954 بأنّ اللّغة العربيّة الدّارجة لهجة معدومة من كلّ قيمة أدبية لا حاجة إلى تدريسها، وبأنّ اللّغة العربيّة الفصحى لغة مّيّنة غريبة عن الجزائر ولا تحمل شيئاً، وأمّا اللّغة العربيّة الحديثة فهي كذلك لغة أجنبية تعبّر عن أفكار وطنية عربية ولا يتقنها إلّا عدد ضئيل من المثقّفين، فقد كان التّعليم باللّغة الفرنسيّة، ولا نجد التّعليم العربي في المدارس الرّسمية.

"وكان التّعليم بصفة عامّة لا يشكّل عند الجزائريين إلّا نسبة ضئيلة جداً ففي عام 1950 مثلاً لم تتجاوز نسبته 4%، هذا في الابتدائي، أمّا في الثانوي فلم يكن هناك إلّا تلميذ واحد من 156 تلميذ أوروبي، والتّعليم الجامعي لم يقتصر إلّا على القلّة الموالية لفرنسا"⁹.

فالسّلطات الاستعمارية لم تكن تسمح بالتّعليم للجزائريين والتّعليم العربي بشكل خاص، لأنّ ذلك يخلّف جيلاً واعياً ومن ثمّ يصبح رافضاً للاحتلال، فهي تعمل على تجهيل الشّعب وتغلق نوافذ المعرفة عليه لكي يسهل لها تذويب الشّخصيّة الجزائريّة في ثقافة غريبة عنّا.

أمّا ثاني عنصر، فهو الحياة الأدبية بصفة عامّة قبيل الثّورة، فعلى ضوء الطّروف الّتي عاشتها اللّغة العربيّة قبل 1954 يمكننا أن نفهم طبيعة الحركة الأدبية في هذه الفترة، فالمعروف أنّ أيّة حركة أدبية مرتبطة أشدّ الارتباط بأدائها التّعبيرية تزدهر أو تضمحلّ بازدهار اللّغة أو جمودها، كما أنّ النّاس في هذه الفترة شغلوا عن الأدب بالتّفكير في قضايا السّاعة، وكان اهتمامهم منصباً على شؤون الحرب العالميّة وآثارها على مصير الشّعب الجزائري، ولكن عند حدوث مجزرة 08 ماي 1954 وتصاعد الوعي الشّعبي، شهدت الجزائر نهضة أدبية وصحافية متطوّرة إذا قيست بالحركة الأدبية قبل ذلك، فقد تطوّرت القصّة القصيرة وارتقى الفنّ المسرحي سواء في عرضه للمضامين الثّورية أو في شكله الفنّي، وقد قيل أنّ مدينة قسنطينة وحدها احتضنت اثني عشرة فرقة مسرحيّة، بالإضافة إلى الفرق النّابعة للمدارس، وما قيل عن القصّة والمسرح يمكن أن يقال عن الصّحافة،

فقد صار الاهتمام بإخراجها واضحاً، وأخذ أسلوبها تطوّراً ملحوظاً، ومع هذا الذي نلاحظه من التطوّر في الميادين الأدبية قبيل الثورة، "فإنّ هناك كتابات تشير إلى جمود الأدباء وكسل المثقّفين في هذه الفترة، ونشير هنا بشكل خاص إلى مقالة **عبد الوهاب بن منصور** "ماهم لا ينطقون؟" التي يقول فيها عن الحركة الأدبية ليس ثمة أعلام جائلة، ولا مطابع مجلجلة، ولا مذاهب ولا آراء ولا جدال ولا شعر ولا خيال"¹⁰.

ومن المعلوم أنّ هذه المقالة سبقت بمقالات **حمزة بوكوشة** و**أحمد الغوالي** وغيرهم، ولكنّها لم تثر ردود فعل كالتي أثارها مقالة **ابن منصور**، حيث يقول **حمزة بوكوشة** وكان في حكمه أكثر قسوة على الحركة الأدبية، "وإذا قائل بكسل المثقفين بالجزائر فأنا أتساءل قبل وصفهم بالنشاط أو الكسل. هل في الجزائر مثقفون؟"¹¹.

وقد حلّل الأدباء وهم يدفعون عن أنفسهم هذه الاتّهامات الوضعية التي كانت تعيشها الجزائر وأثرها على حياتهم وعلى ما يكتبون، إذ يقول **عبد الرحمن شيبان**: "إنّ الأديب الجزائري في بؤس شامل، فهو لا يجد من المال ما يسدّ به الرّمق، فضلاً عمّا يشتري به كتاباً يستمدّ من الوحي والإنتاج، ولا يجد من الوقت ما يقوم فيه بواجبات مهنته، فضلاً عمّا يطالع فيه صفحة بدقّة وعناية، ولا يجد الحرّيّة ما يعني به رأياً جريئاً، يخالف نزعةً أو يعارض نزعةً... إنّه يعيش تحت أحكام عرفية فرضتها عامة الشّخصيات والهيئات"¹².

ومن خلال هذا توضّحت الطّروف والدّوافع التي أسهمت في تحديد معالم الحركة الأدبية والحكم بحركتها أو سكونها، وفي الحالة الاجتماعية المزرية التي يعيشها الأديب فقد عمل المستعمر على تفقير الشعب وتجويعه لضمان موالاته له، فلم يعد الأديب يملك قوت يومه، فكيف له بشراء كتاب يطالعه وينتج عليه منواله؟ ضف إلى ذلك الحالة النّفسية المتأزّمة التي صنعها الاحتلال ونسج خيوطها حيث أباد شهيّة المطالعة وخنق روح الإلهام والإبداع، وكان رقيباً متجبراً على الصّحافة ومقالاتها فكبت الحرّيّات، ولم يعد التّعبير عن الرّأي مسموحاً به في بلد أعدمته فيه الديمقراطيّة ودفنت، فزيّفت الحقائق وبدّلت الوقائع وتجمّلت الآراء ووجهات النّظر.

خير ما يقال أنّ الحركة الأدبية شهدت مرحلتين متمايزتين، فالمنتبّع للنشاط الثقافي يجد الفترة الممتدة ما قبل 1951 كانت أكثر عطاءً أدبياً إذا ما قورنت بالسّنتين أو الثّلاث التي سبقت الثورة، وفي هذا يتساءل **ابن عاشور** فيقول: "فأين العيد وهزاره، والحكيم وحماره، وسحنون وأشعاره؟ أم أين بوكوشة والشّجون،

والأغاريد والعقون، والكاهن والأسجاع والربيع والإبداع؟ أسماء أعجب الناس إنتاجها حيناً من الدهر ثم انطفأت شموعها المضئئة تاركة خلفها حالك الظلام¹³، فهذا القول يدل على أنّ الحركة الأدبية كانت في مرحلتها الأولى نشطة ثم أصيبت بالحمول، وما دفعنا لهذا الحكم هو تلك التساؤلات المطروحة في قول ابن عاشور فهو يسأل عن أشياء ملكت وفقدت، عن تطوّر أدبي اندثر وضاع خلفه التخلف والجمود. ففي سنة 1952 أصيب الأديب بالفتور، ويرجع ذلك إلى الأوضاع السياسية المتأزّمة التي عاشتها الحركة الوطنية آنذاك، والتي أثّرت سلباً على نفس الأديب، وكان من أثرها اليأس، وهو شعوره بعدم جدوى ما يكتب، وقد أشار إلى ذلك القاص أحمد رضا حوحو حين قال: "إنّه كتب حتّى ملّ الكتابة ولم تثمر كتابته شيئاً"¹⁴.

لقد كانت هذه صورة موجزة عن الحركة الأدبية قبيل الثورة بصفة عامة. وعن شعر المقاومة الثورية؛ فقد عمّ بداية الثلاثينات ميلاد النهضة الإصلاحية رسمياً تولّدت في النص الشعري روح جديدة يحدوها الأمل وحفّزها الانبعاث الفكري وتلمس ثمارها ونتائجها، فقد أصبحت تتلمّس في الشعب بعثاً جديداً، يشفع اللّفة إلى الماضي بنظرة إلى الحاضر وأمل في المستقبل، وغدت أجداد الأمس، وقد كان للشعر اتجاهان: رؤية عامة تمجّد التاريخ والحضارة والتراث وتعلي من شأن الشخصية الوطنية، فالشعب الجزائري شعب عظيم يسنده ماض مجيد، ويمدّه آباء وأجداد أبطال اعترف لهم الغزاة على مرّ التاريخ بالإبادة والصّلاية والنزوع إلى الحرية واستقراء الموت في سبيل ذلك. أمّا الاتجاه الثاني فكان رؤية خاصة سلط الأضواء على شخصيات بذاتها ومواقف بعينها وتفضل التعداد والاستقراء، فكأنّها لا ترمي إلّا لاقتناع أو لبعث الاعتزاز بأسماء لها صدى في التاريخ البطولي للوطن، وهو ما عرف بـ "شعر المقاومة الذي يسوده الطابع السياسي ويتحوّل في المضمون والشكل إلى صرخة ثورية ويوظّف ألفاظاً سياسية معاصرة مثل: الثورة الوطنية، الاستعمار، النضال ليستصرخ شباب القرآن وفتية الضاد"¹⁵.

"فشعر المقاومة هو ذلك الشعر الذي يدعو إلى اليقظة الوطنية ونبد الجهل والتسلّح بالفضيلة، فكانت القصيدة الشعرية بمثابة الخطبة الحسنة أو الدرس النافع، كما نجد الشاعر محمد السعيد الزّاهري¹⁶ يدعو إلى التحرّر من قيود الاستعمار في قصيدته "الجزائر تحي الجزائر" والتي يقول في مطلعها:

ألا في سبيل المجد حلي وترحالي ومسعاي في العليا والشرق العالي

فيا ويح قومي كم بعض عليهم من الفقر أنياب، وأنياب أقلال

كأنهم لم يشعروا أن جهلهم لدى الناس طرا سار سيرة أمثال¹⁷

وقد "سعى الشعراء في قصائدهم إلى نزع القناع عن المستعمر وكشف دسائسه وخباياه، وعبروا عن المواقف التاريخية التي لا يخلدها إلا الشعر، ودعوا إلى الانتقال من القول إلى الفعل ومن السياسة إلى الثورة، من الإصلاحات إلى الحقوق، ومن المساواة إلى الشخصية المستقلة، ومن التفاوض إلى التضحية. ومن الشعر نمثل بقول سحنون:

ليس التشدق بالكلام سياسة كلا ولا ذكر المجازر والحروب
أو أن تثير لدى المجالس ضجة حول التقدّم والتأخر في الشعوب
إن السياسة أن تفكر دائما فيما تعانيه بلادك من خطوب¹⁸

فقد "اكتست القصائد في هذه الفترة صبغة الأناشيد الحماسية وسجلت الأفكار الحاسمة ووضعت القضية الجزائرية في بعدها التاريخي، وقد جسّمه مفدي زكريا وكان شعره ذروة الشعر الثوري في مرحلة لم تنل سياسية أو هي بالأحرى ذروة التعبئة السياسية حيث يقول:

نحن قوم أباة ليس فينا جبان
قد سئما الحياة في الشقا والهوان
لا غل الكفاح لا غل الجهاد في سبيل البلاد¹⁹

وشعر كهذا هو أقرب إلى الموقف الثوري المتفجر منه إلى التعبئة السياسية السليمة، خاصة ذاك الشعر الذي تزامن وذكرى حوادث 08 ماي 1945 التي دفع الشعب الجزائري ضريبة دم باهظة الثمن، ودُهل شعراؤنا بها وخنق ابداعهم فيها، وإنحبس الشعر في أحوالها الرهيبة وأصيب الشعراء بالصدمة التلقائية. وسكت الشعر أثناء هذه المجازر مدة زمنية لكن سرعان ما أستفاق من غيبوبة وخرج من دهشته، وانتفض في ذكرى هذا اليوم المشؤوم يحكي مستواه الدامي الرهيب ويصف وحشية المستعمر، وعبر عن ذلك الشاعر محمد العيد في قصيدته "لا ينسى" بقوله: "أكنتم وجدي، أو أهدي إحساسي وثامن ماي جرحه ما له آس

وأرقب ممن أحدثوه ضمادة وهم في جماع لم يميلوا لاسلاس²⁰

وتبدو هذه الأبيات من الوهلة الأولى هادئة فيها نبرة استعطاف واسترحام لكن نحس فيها بالنار تحت الرماد وبهبوب العاصفة وراء الهدوء، و"يلتقي إبراهيمي مع محمد العيد في أنه لا ينسى هو الآخر، ويعبر عن ذلك بقوله:

ذكراك يا يوم تحزُّ في الأحشا
إذا أقبل القوم وحش تلا وحشا
يا يوم لم تشرق شمس على مثلك
آل الضُّحى مغرق والملتجئ مهلك
يا يوم لم ذكراكا لم تبرح البال
لو طاف مسراكا بالليث ما صالا²¹

وهكذا ظلَّت طلعة 08 ماي 1945 طلعة شؤم على كلِّ الشَّعب الجزائري احتلت مكانة مرموقة في شعر المقاومة، فالمسيرة بعدها دخلت مرحلة الانتفاضة وودَّعت حياة المنابر والمحافل، وراح الشَّعر يفرغ بوعيه الرائد فيها ويلعب دور الحماس والنَّهضة، ويصر الشَّعب ويذكره بالغاية المرجوة ويأخذ بيده كلُّما ضاع في غيابات الوهم والسَّذاجة.

فرغم أنَّ أحداث ماي جسَّمت ذروة الوحشية الاستعمارية فإنَّ أبعادها في الشَّعر كانت عكسية حيث عبَّر عنها الشَّعر بالصَّمت حيناً وبالرَّعدة الحماسية أحياناً، وعلى ضوء هذه الأحداث وما عايشها من شعر، تمخَّضت الثَّورة وسارت أحداثها لينمو الشَّعر في أحشائها ويعبِّر عن آلامها وآمالها، ويتفاعل بتفاعلها ويتجول في ساحة المعركة شعراء أبطال عبَّروا بكلِّ صدق وجرأة وشجاعة عن آرائهم، ووصفوا بطولاتهم وخلَّدوا شهدائهم.

¹ - يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ج1، ثورات القرن التاسع عشر - ط2 - منشورات المتحف الوطني للمجاهد - طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة بالروية، الجزائر، 1996، ص.6.
² - عبد القادر حلوش، سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، ط1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1999، الجزائر، ص.12.
³ - حسن عبد الرحمن سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسراً، ط1، 1984، الجزائر، ص.28.

- ⁴ - رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، (1931-1956)، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1975، الجزائر، ص.52.
- ⁵ - عيون البصائر، دار المعارف بالقاهرة، 1963، ص.16.
- ⁶ - البصائر، السنة الرابعة، عدد 171، قسنطينة، 22 يونيو 1939، ص.5.
- ⁷ - د.صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، 1984، ص.12.
- ⁸ - م. س، ص.11.
- ⁹ - شلتاغ عبود شراد، حركة الشعر الحر بالجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ص.22.
- ¹⁰ - البصائر، العدد 17/207 نوفمبر 1952، ص.02.
- ¹¹ - شلتاغ عبود شراد، م. س، ص.25.
- ¹² - البصائر، العدد 16/213 جانفي 1952، ص.03.
- ¹³ - شلتاغ عبود شراد، م. س، ص.26.
- ¹⁴ - م. س، ص.27.
- ¹⁵ - د.صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص.116.
- ¹⁶ - شاعر جزائري، ولد بمليانة عام 1897م، وتوفي في الجزائر 1956.
- ¹⁷ - د.عبد الملك مرتاض، فنون النشر الأدبي في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص.67.
- ¹⁸ - د.صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص.208.
- ¹⁹ - م. س، ص.208.
- ²⁰ - محمد العيد آل خليفة، ديوان محمد العيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، قسنطينة، 1967، ص.325.
- ²¹ - م. س، ص.214.